أشجار الإيمان سجود الكون ومعاني العبودية

الجمعة 5 يونيو 2026 08:00 م

يرى الأستاذ محمد أحمد الراشد في كتاب "الرقائق"، أن المتفكر، إذا أفلت من الصخب الملهي وتأمل في هدوء وروية، يستطيع أن يرى وحدة العبودية وتكاملها في أجزاء هذا الكون لله تعالى الذي خلقه ومن هذا الباب يلفت النظر إلى سجود الأرض بما عليها من نبات وشجر، مستشهداً بقول الله عز وجل: { والنجم و الشجر يسجدان }، ليجعل من الخضرة الممتدة حول الإنسان تذكرة دائمة بسجود القلب، والرضا عن الله، والتسليم لحكمه في الحلال والحرام

ويمضي الراشد في بناء صورة إيمانية واسعة، يجعل فيها الأشجار رموزاً لمعانٍ كبرى في حياة المؤمن والداعية؛ فهناك شجرة التوحيد، وشجرة الطاعة، وشجرة الترحاب، وشجرة الوفاء، وشجرة الثبات، وشجرة الأنس، وشجرة المفاصلة، وشجرة الاغتفار، وشجرة الزهد، وشجرة الحلم ومن خلال هذه الرموز تتصل الخضرة بخصال الفطرة، وتتحول الخلوة بين الشجر إلى سبيل للذكر، والإنابة، وتجديد البصيرة، وتربية القلب على الرضا والوفاء والعفو والثبات

سجود الأرض لله تعالى

وحدة العبودية ، و تكاملها ، في أجزاء هذا الكون، لله تعالى الذي خلقه : حقيقة يراها المتفكر ، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهي و يتأمل في هدوء ورَوية .

منها : عبودية لا تشوبها الوساوس، لبساط الأرض جميعه، حشائشه والباسقات، نبهك القرآن لها ، في قوله عزّ وجلّ : { والنجم و الشجر يسجدان } .

قال الطبري : " يعني بالنجم : ما نَجَم من الأرض من نبت، وبالشجر : ما استقل على ساق " 88

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة، يديم له سجوداً قلبياً، آيته الرضا عن الله، والتسليم لحكم حلاله وحرامه، به يستكمل سجود جبهته مغزاه .

الخلوة بين الشجر ولذة المراقبة

ومتى ذاق المؤمن، بالخلوات المسترسلة ، لذة مراقبة هذا السجود الأخضر ، المتوشح بألوان الزهر ، وأذن لقلبه أن يبالغ في الهبوط مقلداً ، حتى يلامس أوطأ الإخبات : نادى غيره للمشاركة، وعرض عليه الرفقة، منخلعاً عن حسد واحتكار .

وتلك هي دعوة إقبال، لما ظفر بسر السياحة الإيمانية الصامتة، في البراري الناطقة، ونبهك إلى إنصات واجب، لتسبيح دائب، و أوصاك أن :

دع الدور واطلب فسيح البراري

و انظر إلى صفحات الجمال

على حافة الماء دون ملال

تأمل ترقق ماء زلال

وحدق إلى نرجس ذي دلال

وقبّل عيوناً له كاللآلي

الخلوة زاد للفكر والذكر

و كان عبد الوهاب عزام أول مجيب له، وطفق يستغرق في التأمل، فرآه جاهل بما هنالك فأنكر عليه، فقال :

لست أخلو لغفلة و سكون

وفرار من الورى و ارتياح

إنما خلوتي لفكر و ذكر

فهي زادي وعُدّتي لكفاحي

و ما زاد بهذا على أن جدّد مذهباً سالفاً، و عرفاً عند أول المسلمين، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعلم و التعليم، والأمر و النهي، و ضرورات المعيشة، يميلون فيها إلى التفرد خارجاً ، والركون إلى أرباض مدنهم ، و الجلوس بين الزروع ، يرجون لأنفسهم بصائر و تذكرة .

وروى ابن القيم أن شيخه ابن تيميه، رحمهما الله ، كان يتركهم غادياً بعد الفجر مراراً ، فراقبه ، فوجده يعتزل في غوطة دمشق و حقولها ، حتى غدت عنده عادة .

الخضرة وخصال الفطرة

وما ذاك على أسلوب القرآن بغريب ، ولا على رموز النص الشريف المأثور و تشبيهاته، بل هو ارتباط واضح خلالهما بين الخضرة و خصال الفطرة، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير و التمثيل، في نحو على منحاهما، يدلك على قلوب فقهت المناسبة، واستوعبت الإشارة، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر ومعاني الإيمان، إنها غابة من أشجار الإيمان ، فيها أيك ملتف متشابك، تجعل سيرك في ظل وارف، و مداعبة من زكي العبيق .

شجرة التوحيد

تفجؤك فيها شجرة التوحيد وهي شجرة غرسها القرآن، تستلقي تحت أغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى : { ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها ، و يضرِب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون }

قال ابن القيم : " فإنه سبحانه شبّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين . و إذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت ، بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، وقيامه بحقوقها ، ومراعاتها حقّ رعايتها "

و من السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح ، وقال الربيع بن أنس : ذلك المؤمن ، أصل عمله ثابت في الأرض ، و ذكره في السماء .

قال ابن القيم : " ولا اختلاف بين القولين ، و المقصود بالمثل : المؤمن ، و النخلة مشبهة به ، وهو مشبه بها " .

شجرة الطاعة

و من مكانك تحتها تشم عبير ورود بقربها ، من شجرة تسمى شجرة الطاعة، شهدت منحة الرضوان، لما أسبغت، يوم نزلت: { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً }

و يفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد ، غير مضطرب لحرمان وفوات، ينتظر فتحاً لحركة الإسلام تندكّ به صروح الضلال ، قد قدّم له التبايع على الموت ثمناً .

شجرة الترحاب

فإن اختار الله لك المحنة سبيلاً لهذه المنحة، وحَزَبَك الأمر: لجأت إلى شجرة الترحاب، تطلب الطمأنينة عندها ، هازاً جذعها ، لتغدق عليك من بركتها ، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الأرض ، فجاءها نداء: { و هزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جَنياً فكلي و اشربي و قرّي عينا } .

فتأكل رطيبات وتقنع بها ، عازفاً عن بطر المترفين ، وتغرف من ثَمّ من سَرِي بين يديك يجري، مستعلياً بعزة دونك مدارجها، ترقى إليها و تَسري .

شجرة الوفاء

و للنبي صلى الله عليه وسلم غِراس في هذه الغابة، كما أن الحكمة أشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفة، إيماء إلى هذا الارتباط ، ربما ، و إثارة لتطلع الغافل .

منها : شجرة الوفاء ، عنوان امتزاج الأرواح الذاكرة ، تنطق بالشكر ، و تحفظ الفضل لأهله ، و تعلن عِرفان الجميل .

وهي نخلة ، تَنَهَّدتْ عند الفِراق .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : (كان جذع يقوم إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه)

أي كأصوات النياق التي أثقلها حمل بطنها وقَرُب مخاضها . وتلك من معجزاته ، عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام .

جذع أنيلَ الشرف، فوفى ، واجتمع له الحَنين ، فاستبدَّ به استبداداً ، فَرَّق منه الأنين .

وما من أحد إلا وفي بيته ديوان حديث، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عنده يُفقِّه أمرَ دينه، و يُلقنه شرائع الأسلام، و الوفاء يليق لمثلنا، نتعلمه من الجذع، و نترجمه صُوراً من الاتّباع و الاقتفاء .

شجرة الثبات

و شجرة خامسة تسمى شجرة الثبات، تلوذ بها يوم تتوزع الناس الأهواء ، فتطلب النجاة معتزلاً الفِرَق كلها ، (ولو أن تعضّ بأصل شجرة) .

وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن أبي مُليكة : " اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نُفتن " فلأمر ما مما نقول كان هذا الاعتصام بالشجر ، في إلحاح يزيد معه المعتصم شدّ نواجذه ضاغطاً ، لو تخيّلته، لتردّد قلبك يهتز في قلق ، بين رهبة من استرخاء يعتري فيَجرِف ، و أمل في إتمام يُنجي .

إلا أن رحيق هذه الشجرة يرويك إذ الناس تلهث عطشاً ، ويبل حلقك بارداً ، فتضاعف العضّ مُبالغاً ، كأنك تمص الثبات راضعاً .

شجرة الأنس

و سادسة تُعرف بشجرة الأنس، تُصاحبك عند الوحشة، و تخفف رطوبتها جفاف هفواتك غَرَسها النبي صلى الله عليه وسلم لما مَرَّ بقبرين يُعذبان ، فكان أن: (أخذ جريدة رطبة ، فشقها بنصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، فقالوا : يارسول الله : لِمَ صنعت هذا ؟ فقال : لعله يخفف عنهما مالم يَيْبسا) .

ففهم بُريدة الأسلمي – رضي الله عنه – من ذلك أنها سُنة ، فأوصى أن يُجعل في قبره جريدان ، فما زال الناس يُقلدونه في ذلك .

وقد لا نخلوا من لمم يكدر صفو العمل، أو من تَتَبع بفضول لما في يد أهل الدنيا من أموال الاستدراج ، يكون معه الأرق المتلف، واضطراب النوم، فيضعف الاستعداد للفجر الآتي ، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهفك .

شجرة المفاصلة

ثم شجرة المفاصلة، شهدت كيف يُتمم استقلال الوسيلة عند المسلم استقلال الهدف، و ذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والأنصار حين سيره نحو بدر ، يريد أن يقاتل معهم ، حمية و نصرة لقومه، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت مَعْلماً في الطريق، ذكرتها عائشة رضي الله عنها: لحق بهم ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (ارجع ، فلن أستعين بمشرك) .

فمضى ذلك أصلاً ، لم يطرأ عليه الاستثناء إلا في حوادث ضيقة .

و تحاصر جبهات الأحزاب اليوم دعوة الحق، تبثّ إرجافها، متهمة إياها بتخلف عن ركب سياسي مجتمع، فيقصد الدعاة الأشجار المعالم الضخام ، فتشهد بانتفاء اللقاء ، و عيب النزول بعد الاستعلاء .

شجرة الاغتفار

ولما فَقه الناس هذه الأمثال: تتابعوا في سباق يغرسون، فكانت شجرة ثامنة عرفت بينهم أنها شجرة الاغتفار .

وهي شجرة عنب كثيرة الثمر ، فكان غارسها إذا مَرَّ به صديق له : اقتطف عنقوداً ودعاه ، فيأكله ، وينصرف شاكراً .

فلما كان اليوم العاشر : قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها : ماهذا من أدب الضيافة ، ولكن أرى إن دعوت أخاك ، فأكل النصف ، مددت يدك معه مشاركاً ، إيناساً له ، وتبسطاً وإكراماً .

فقال : لأفعلن ذلك غداً .

فلما كان الغد، و انتصف الضيف في أكله : مدّ الرجل يده و تناول حَبّة ، فوجدها حامضة لا تساغ ، وتفلها ، و قطّب حاجبية ، و أبدى عَجَبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها .

فقال الضيف: قد أكلت من يدك ، من قَبلُ على مر الأيام حُلواً كثيراً ، و لم أحب أن أريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف .

و ما هذه من قصص الأغاليط ، ولكنه مَثل ضرب لك أيها الأخ الداعية فاستمع له ، ومجاز تدلف منه إلى العدل مفتوح أمامك .

فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة و استقام له الصواب، فإن أخطأ معك أخ لك فلا تجرمنّك كبوته على الهجران، والتأفف، و الضجر والانتقاص منه، بل ولا على العتاب , إنما تتصبر ، و تكظم و تعفو في سرك مستحضراً جمال سابقاته ، و جياد أفعاله ، و حلو مكرماته ، إذ لعله قد أعانك على توبة أو ظاهرك عند تعلمك رديفاً و رفيقاً و سميراً ، أو علّمك باباً مما علّمه الله و طريفه .

شجرة الزهد

فإن استفدت و نشرت الانصاف، فقد أذن لك في أن تستلقي تحت شجرة هيفاء، كثيرة الثمار و الورود، يخلب نظر الرائي جمالها، وتُنطق المستمتع حمداً لرفيع ذوق غارسها .

اسمها : شجرة الزهد .

وهي شجرة قلبية فريدة، ولم يَسبق صاحبها أحد إلى استنبات مِثلها ، فجاءت بدعة، ووصفها فقال :

غَرسَ الزهدُ بقلبي شجره

بعد أن نقّى بجهدٍ حَجَرَه

وسَقاها إثرَ ما أَودَعها

كَبِدَ الأرضِ بدمعٍ فَجَّرَه

ومتى أبصرَ طيراً مُفسداً

حائماً حول حِماها زَجَرَه

نمتُ في ظلٍ ظليلٍ تحتَها

رَوّح القلبُ و نَحى ضَجَره

تم بايعت إلهي وكذا

بيعة الرضوان تحت الشجرة

فانظروا أطوار رعايته لها، وعنايته بها، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من أحجار الحسد و الرياء و التكبر و سوء الظن ، و كيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الأخيرة ، وكيف زجر شياطين الإنس و الجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها ، وقلّده ، و أفعل فعله : تورق لك أختها ، و تتفتّح لك منها الزهور بألوان و عطور ، فتنام تحتها كما نام ، تستشعر شعور أهل بيعة الرضوان ، و كأنك فيهم و معهم ، تغمرك نشوة البيعة على الموت في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام .

شجرة الحلم

ووعى الإمام حسن البنا – رحمه الله – فَن زراعة أشجار الإيمان، فغرس لك الشجرة العاشرة، وهي شجرة الحِلم ، و صفها مخاطباً الدعاة فقال : " كونوا كالشجر، يرميه الناس بالحجر ، و يرميهم بالثمر " . ولقد أجاد وأفاد ، فإن في أكثر الناس سرعةَ جنوحٍ إلى الجهل ، يميلهم

إلى تكذيب دعاة الإسلام و إيذائهم بالباطل . ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين ، وقابل الإساءة بإساءة، لعفت رسوم الإحسان واندثرت، و لكنه الصدر الواسع ، والاحتساب ، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون .

الخلوة بين الشجر سبيل للذكر والإنابة

أما بعد :

فليس الإمام البنا بآخر غارس في غابة الإيمان، و إنما وضعنا في يدك الفأس، و أعطيناك البذر ، فأبذر : تجد الثمر و فيراً ، مباركاً .

فاخرج و تجوّل متأملاً : تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة، و إن لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها، و يقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها .

ومن ها هنا كانت سويعات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافلين، وسبيل إنابة .

و مما ينبيك عن صدق ظننا الحَسَن هذا بالأشجار أن الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة، لكنها ليست قائمة، بل اجتُثتْ من فوق الأرض ما لها من قرار .

فليس من شجر واقف إلا و يعظك بكلمة من الإيمان .